

## الفصل الرابع

الشعراء العساق في صدر الإسلام



## الشعراء العشاق في صدر الإسلام

### مالك بن الصمصامة الجعري وجنوب

وورث الشعراء العشاق في صدر الإسلام تقاليد الغزل العفيف في العصر الجاهلي، وساروا على نهج من سبقهم وذكروا عشاق الجاهلية واقتدوا بهم وتأسوا بما أصابهم .

ومن هؤلاء الشعراء العشاق الذين تعلقوا بامرأة واحدة وأخلصوا لها الحب وقاسوا في حبهم وحرموها من امتلاك من يحبون ؛ مالك بن الصمصامة الجعدي من بني عامر بن صعصعة، الذي كان يهوي فتاة من قومه هي جنوب بنت محسن الجعدية، وكان مالك فارساً شجاعاً جواداً جميل الوجه، وقد توثق الحب بين مالك وجنوب، إلا أن أخاها الأصبح بن محسن قمع هذا الحب وحكم على المحبين بعذاب الفراق والحرمان، كان الأصبح فارساً من فرسان العرب وشجعانهم، وأهل النجدة والبأس منهم، فَنَمِي إليه شيء من خبير مالك وجنوب، فألى يمينا غليظة : لئن بلغه أنه عَرَضَ لها أو زارها ليقتلنه، ولئن بلغه أنه ذكرها في شعر أو عَرَضَ بها لياسرته، ولا يطلقه إلا أن يجزَّ ناصيته في نادي قومه، فبلغ ذلك مالك بن الصمصامة، فضاقت به الدنيا، وزاد سعار الحب في قلبه وملاً كيانه، وصار يصور حاله وما يقاسيه وما سيصيبه، وقد كبر عليه أن يحرم من حب طاهر عفيف، وجاء بصورة صادقة رائعة يعرضها أمام الأخ الظالم وقومه، إنه يرضى بما ينزل به من عقاب مادام قريباً ممن يحب ، ويعجب ممن يرى أن من العيب أن يحن حبيب إلى حبيبه، وهل من الحق أن يحرم إلف من الحنين إلى إلفه، وهل حرمت نجبية

من الإبل من الحنين إلى إلفها ؟ يقول مخاطباً أخاها: (١)

إذا شئتَ فاقرني إلى جنب عيهب  
فما الخلقُ بعدَ الأسرِ شرُّ بقيَّةٍ  
ألا أيها الساقى الذي بِلْ دلوهُ  
إذا أنتَ لم تشربْ بقرانَ شربةٍ  
أحبُّ هبوطَ الوادينِ وأنتي  
أحقاً عبادَ الله أنْ لستَ خارجاً  
ولا زائراً وحدي ولا في جماعةٍ  
وهل ريبه في أن تحنَّ نجيبه

واشدد العشق بمالك وأصابه الضني والهيام فهو لا يكاد يرى حبيبته حتى يبهر

ويغمى عليه لأنه محروم من النظر إليها، محروم من محادثتها، عليه رقيب من قومه، وسلطان أخيها قد سدَّ عليه منافذ الأمل، يروي أبو الفرج بعضاً من صور محنته وما أصابه حين رآها، قال: "حدثنا فتيان من بني جعدة أنها أقبلت ذات يوم وهو جالس في مجلس فيه أخوها، فلما رآها عرفها، ولم يقدر على الكلام بسبب أخيها، فأغمي عليه، وفطن أخوها لما به، فتغافل عنه، وأسندته بعضُ فتیان العشيبة إلى صدره، فما تحرك، ولا أحرار جواباً ساعةً من نهاره، وانصرف أخوها كالخجل، فلما أفاق قال: (٢)

ألمتُ فما حيَّتْ وعاجتْ فأسرعتْ  
إلى جرعةٍ بينَ المخارمِ فالنُحرِ  
خليلي قد حانتْ وفاتي فاحفراً  
برابيةٍ بينَ المخافرِ والبُترِ

(١) الأغاني ٢٢ / ٨٢ ، تزيين الأسواق ١ / ١٥٠ . العيهب: الكساء، من الصوف

ونحوه. أحبُّ: مقطوع السنم للإبل . نضو: بال خلق. القلوص: الناقة الفتية. قران: موضع في ديار بني جعدة من بني عامر.

حانية الجدران: أي الكعبة، يقسم بها.

(٢) الأغاني ٢٢ / ٨٢ - ٨٣ . عاجت: انصرفت. الجرعة: الأرض ذات الحزونة تشاكل

الرميل. المخارم والرميل: موضعان في ديار بني جعدة. المخافر والبتر: موضعان.

الجدث: القبر .

لكيما تقول العبدية كلما رأت جدثي: سقيت يا قبر من قبر " ويتها قوم جنوب للرحيل طالين النجعة في مواضع ممرعة، ناحية حسي والحمى (١) وتضيق بمالك الدنيا لرحيل حبيبته، فيقف في طريق القوم المرتحلين، حتى إذا بلغت جنوب أخذ بخطام جملها، يلقي عليها نظرة الوداع، ويتوثق منها هل تقيم على العهد وترعى ما بينهما من حب، وأنشأ يقول: (٢)

أريتك إن أزمعتُم اليومَ نيةً وغالك مُصطافُ الحمى ومرابعه  
أترعين ما استودعت أم أنت كالذي إذا ما نأى هانت عليه ودائعه  
فبكت جنوب وقالت: بل أرعى والله ما استودعت، ولا أكون كمن هانت  
عليه ودائعه، فأرسل بعيرها، وبكى، حتى سقط مغشياً عليه، وهي واقفة،  
ثم أفاق، وقام، فانصرف وهو يقول: (٣)

ألا إن حسيًا دونه قلّة الحمى منى النفس لو كانت تُنالُ شرائعه  
وكيف ومن دون الورود عوائق وأصبغ حامي ما أحبُّ ومانعه  
فلا أنا فيما صدني عنه طامع ولا أرتجي وصل الذي هو قاطعه  
ويبقى مالك بعد رحيل حبيبته يعاني الشوق والضني، ولا يطيق ما ابتلي  
به من همٍّ وعذاب فيغلبه المرض ويودي به، ويصل نعي مالك إلى جنوب  
وكان في يدها إناء لمن ترتشف منه فما إن سمعت الخبر حتى غصت  
واضطربت، فإذا هي قد لفظت أنفاسها وسقطت ميتة. (٤)

(١) موضعان فيهما نخل وزرع .

(٢) الأغاني ٨٣/٢٢ .

(٣) أصبغ: هو أخو جنوب، وقد تقدم ذكره .

(٤) تزيين الأسواق ١/١٥٢ .



## عبد الله بن علقمة (حُبَيْش)

وقصة حب عبد الله بن علقمة قصة حب صادق عنيف عفيف، وعبد الله بن علقمة أحد بني عامر بن عبد مناة بن كنانة، أحب فتاة من قومه يقال لها حُبَيْشَة بنت حُبَيْش، وكان بدء القصة أن عبد الله كان غلاماً لم يحتلم بعد وخرج مع أمه لتزور جارة لها، وكان للجاراة بنت جميلة، فلما رآها عبد الله أعجبتَه ووقعت في نفسه، وقيل إنه رآها تحلب الناقة فذهله جمالها، ثم لما قدمت له اللبن ليشرب اضطرب وسقط اللبن من يده فعلمت ما يخالجه، ووقع في نفسها وأحست بما يحسه (١)، وانصرف وترك أمه عند جارتها، فلبثت عندها يومين، ثم أتاها ليرجعها إلى منزلها، فوجد حُبَيْشَة قد زُيِّنَتْ لأمر كان في الحي، فازداد بها عجباً، وانصرف بأمه في غداة تُمطر، وصورة حبيشة لا تفارق ذهنه، فصار ينشد وهو في الطريق : (٢)

وما أدري بلى إني لأدري    أ صوبُ القَطْرِ أحسنُ أم حُبَيْشُ  
حُبَيْشَة والذي خلق الهدايا    وما عن بعدها للصبِّ عيشُ

فسمعت ذلك أمه فتغافلت عنه وكرهت قوله، ثم مشيا ملياً، فإذا هو بظبي على رهوة من الأرض، فذكره بحبيشة فسأل أمه عن أيهما أجمل :  
يا أمّتا أخبريني غير كاذبة    وما يُريدُ مسؤلُ الحقِّ بالكذبِ  
أتلك أحسنُ أم ظبيُّ برايبيةٍ    لا بل حُبَيْشَة في عيني وفي أربي  
فزجرته أمه وقالت له : ما أنتَ وهذا! نزوجك بنت عمك فهي أجمل من

(١) مصارع العشاق ٣١٤/١ .

(٢) الأغاني ٣٠٠/٧ .

تلك، وأتت امرأة عمه فأخبرتها خبره، وقالت : زبني ابنتك له، ففعلت وأدخلتها عليه، فلما رآها أطرق، فقالت له أمه : أيهما الآن أحسن؟ فقال

ينفس عما في قلبه من حب حبيشة التي ملأت قلبه وشغلت كيانه :

إِذَا غَيَّبْتُ عَنِّي حَبِيشَةَ مَرَّةً      مِنْ الدَّهْرِ لَمْ أَمْلِكْ عِزَاءً وَلَا صَبْرًا  
كَأَنَّ الحَشَى حَرُّ السَّعِيرِ يَحُشُّهُ      وَقَوْدُ الغَضَى وَالقَلْبُ مُسْتَعْرَا

وتمكن حب حبيشة من قلبه، وصار يقول فيها الشعر ويراسلها، وهي

تستجيب له وتراسله، وتبادلا حباً يوجب ووجداً يوجد، وكثر قوله الشعر

فيها، فمن قوله يحدثها ويذكر لها أمانى نفسه في الزواج منها: (١)

حَبِيشَةُ هَلْ جَدِّي وَجَدُّكَ جَامِعُ      بِشَمْلِكُمْ شَمْلِي وَأَهْلِكُمْ أَهْلِي  
وَهَلْ أَنَا مَلْتَفٌ بِثَوْبِكَ مَرَّةً      بِصَحْرَاءَ بَيْنَ الأَلَيْتَيْنِ إِلَى النَّخْلِ

وَهَلْ أَشْتَفِي مِنْ رَيْقِ ثَغْرِكَ مَرَّةً      كِرَاحٍ وَمَسْكِ خَالِطَا ضَرْبِ النُّحْلِ

ولما كثر شعره وشاع وعرف أهل حبيشة بهذا الحب، حجبوها عنه ،

فزاد تعلقه بها وغرامه فيها وهو يخفف عما في جواه من حرقه الشوق بقول

الشعر ينفس به عن همومه، فأراد أهل حبيشة أن تواعده موضعاً وتشتمه

وتظهر له البغض ليكف عنها، وكمن أهلها في موضع قريب يستمعون ما

تقول، ولقنوها أن تقول : " نشدتك الله إن كنت تحبني فوالله ما على

الأرض شيء أبغض إلي منك " ، وجلست حبيشة عند السرحة ، وأقبل عبد

الله لوعدها، فلما دنا منها دمعت عيناها والتفتت إلى حيث أهلها جلوس،

فعرف أنهم قريب فرجع ، وبلغه ما قالوا لها أن تقوله، فازداد تعلقاً بها،

وصار يصف حاله وحالها ويتذكر دموعها :

---

(١) الأغاني ص ٣٠٠. الأليتان والنخل: موضعان. الضرب: العسل الأبيض الغليظ .

لوقلت ما قالوا لَزِدْتُ جَوَى بكم على أنه لم يبقَ سترٌ ولا صبرٌ  
 ولم يكُ حَبِي عن نوالِ بذلته فيُسَلِّيني عنه التَّجَهُمُ والهَجْرُ  
 وما أنسَمَ الأشياءَ لأنسَ دمعها ونظرتَها حتى يُغَيِّبني القَبْرُ  
 وكانت نهاية هذا الحب الصادق العفيف، نهاية مروعة إذ قُتل عبد الله  
 بين يدي حبيته، وكان ذلك حين بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني  
 عامر يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم منهم من أسلم وقاتل منهم من قاتل ووقع  
 عبد الله بن علقمة أسيراً، فلما أخذوه ليُقتل قال لهم: هل لكم في خير؟  
 تدركون بي الظعن أسفل الوادي ثم تقتلونني، فلما كان في ذلك الموضع نادى  
 بأعلى صوته: اسلمي حُبَيْش، عند نفاذ العيش، فأقبلت إليه جارية بيضاء  
 حسناء، فقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، ثم أنشد:

(١)

إن يقتلونني يا حُبَيْش فلم يدعْ هواك لهم مني سوى غُلَّةِ الصدرِ  
 وأنت التي أخليت لحمي من دمي وعظمي وأسبلتِ الدموعَ على نحرِ  
 فأجابته تقول:

ونحنُ بكينا من فراقك مرَّةً وأخرى وآسيناك في العُسْرِ واليسرِ  
 وأنتَ فلا تَبْعُدْ فنعم فتى الهوى جميلُ العفافِ في المودَّةِ والسترِ  
 وتبادلا الشوق وتجاوزا بالشعر، حتى ضُربَ عنقه، فتقحمت حبيشة من  
 خدرها حتى أتت نحوه فالتقمت فاه، وهي تضرب نفسها وتضطرب، فلما  
 نزعوا منها رأسه وجدوها قد لحقت به وفارقت دنيا العذاب.  
 وحين علم رسول الله ﷺ ما صنَّع بالأسرى حزن وأرسل علي بن أبي

(١) الأغاني ص ٣٠٣ .

طالب ليدفع لهم دياتهم . وهكذا طويت صفحة حب صادق عفيف عانى فيه  
العاشقان في سبيل هذا الحب العذاب والضحى والحرمان .

## عروة بن حزام (عفراء)

أول شاعر عاشق من بني عذرة، كانت قصة حبه مثلاً للحب الطاهر العفيف الذي لقي في سبيله الشقاء والعذاب والضني والهيام، حتى أودى به الحب فمات محروماً من حبيبته، وقصته شبيهة بقصة حب المرقش الأكبر، وتكاد قصص المحبين المتيمين تتكرر وتتشابه، وقد صار عروة مثلاً وقُدوة للشعراء العذريين الذين عانوا مثل ما عانى فذكروه وتأسوا به، ذكره قيس بن الملوح مجنون ليلى في قوله : (١)

عجبتُ لعروة العذريِّ أمسى أحاديثاً لقومٍ بعدَ قومٍ  
وعروة مات موتاً مستريحاً وها أنا ذا أموتُ بكلِّ يومٍ

وبأتسى به وبابن عجلان قيس بن ذريح صاحب لبني في قوله : (٢)  
وفي عروة العذريِّ إنَّ متُّ أسوءَ وعمرو بن عجلانَ الذي قتلتُ هندُ  
وبي مثل ما ماتا به غيرَ أنِّي إلى أجلٍ لم يأتني وقعهُ بعدُ  
ويذكره جميل بن معمر مقارناً ما يجد من عذاب الحب بما وجد عروة : (٣)  
ولا وجد العذريُّ عروة إذ قضى كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي  
على أنَّ من قد مات صادفَ راحةً وما لفؤادي من رواحٍ ولا رشدٍ  
وذكره جرير أيضاً وهو يتكلف العشق والهوى : (٤)

هل أنتِ شافيةٌ قلباً يهيمُ بكم لم يلقَ عروةً من عفراءَ ما وجدنا

(١) الأغاني ٨٤/٢ ومصارع العشاق ٧٥/٢ .

(٢) ديوانه ص ١٤٠ .

(٣) ديوانه ص ٧٦ .

(٤) ديوان جرير ص ١٢٥ ط صادر، وتزيين الأسواق ١٦٧/٢ .

ما في فؤادي من داءٍ يُخامرُهُ إلا التي لو رآها راهبٌ سجداً  
وعروة هو عروة بن حزام بن مهاصر، أحد بني حزام بن ضبة بن عبد كبير  
بن عذرة، كانت ولادته في الجاهلية وعاش في الإسلام وتوفي زمن عثمان  
سنة ٣٠ هـ، فهو من الشعراء المخضرمين، وليس له شعر إلا ما قاله في  
عفراء وما وصف به حاله وما وجدته من عناء الحب والحرم، نشأ عروة  
يتيماً، فقد توفي أبوه وهو في الرابعة من عمره (١)، فكفله عمه عقال بن  
مهاصر، وعاش عروة وعفراء في بيت واحد يلعبان ويمرحان ولا يفترقان،  
وقد ألفت كل منهما الآخر وأحبه، وكان عمه عقال يقول لعروة لما يرى من  
إلفهما: أبشر فإن عفراء امرأتك إن شاء الله، فكانا كذلك حتى أدركا  
ولحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال (٢)، ويلجأ عروة إلى عمته هند  
بنت مهاصر فيشكو لها ما يلاقي من حب عفراء ويريد الزواج بها، وتعدّه  
خيراً وتتوسط له لدى أخيها، وتسال هند أباها أن يزوج عروة بعفراء،  
فيعدها خيراً، ويريد من عروة أن يتمهل حتى يكون له مال، فيطمئن عروة  
بعض الاطمئنان. ولكن أم عفراء كانت سيئة الرأي فيه، تريد لأبنتها ذا  
مال ووفر، وقد أبت أن تزوج ابنتها إلا من رجل موسر كثير الثراء.  
فعزم عروة أن يقصد ابن عم له موسراً كان مقيماً باليمن، وجاء عروة  
إلى عمه وامراته فأخبرهما بعزمه، فصوباه ووعدها ألا يحدثا حدثاً حتى  
يعود. وقصد عروة ابن عمه، وعرفه حاله وما قدم له، فوصله وكساه،  
وأعطاه مائة من الإبل، فانصرف بها على أهله. (٣)

(١) تزيين الأسواق ١٦٨/٢ .

(٢) الأغاني ١٢٤/٢٤ .

(٣) الأغاني ١٢٥/٢٤ .

وفي غياب عروة نزل رجل من أهل الشام من بني أمية في حي عفراء ،  
فنحر ووهب وأطعم ، وكان ذا مال عظيم ، فرأى عفراء ، وكان منزله قريباً من  
منزلهم ، فأعجبته وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر بأنها مسماة إلى ابن عمها ،  
فرغبه بالمال ، ولجأ إلى أمها ، فوافق عندها قبولاً ، وألحت على زوجها  
وخاصته حتى رضي ، وزوجها ، فأقام زوجها فيهم ثلاثاً ثم ارتحل بعفراء  
إلى الشام ، وقيل إن عفراء قالت قبل أن يدخل بها : (١)

يا عرو إن الحي قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وخاف أبوها عودة عروة وعلمه بغدر عمه ، فعمد إلى قبر عتيق فجدده

وسواه زاعماً أنه قبر عفراء ، وسأل الحي أن يكتموا أمر زوجها .

وعاد عروة بعد أيام مئياً نفسه بالزواج من عفراء والظفر بحبيبته ، غاية  
ما يتمناه ، ولكنه فُجع حين أعلمه عمه بأن عفراء قد توفيت ، وذهب به إلى  
ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أياماً وهو مضنى هالك ، وتكرر قصة  
المرقش ، فقد علم من إحدى الجوارى بخبر زواج عفراء ورحيلها ، فضاقت به  
الدنيا وعزم أن يرحل إليها ، فرحل إلى الشام وسأل عن الرجل فأخبر به ودلَّ  
عليه ، فقصده ونزل عليه ضيفاً وانتسب له إلى عدنان ، فأكرمه زوج عفراء  
وأحسن ضيافته ، ومكث أياماً حتى أنسوا به ، ثم سأل جارياً لهم أن توصل  
خاتمه إلى عفراء ، فامتنعت الجارية ورأته عملاً قبيحاً ، فلما ألحَّ عليها

وأعلمها أنه ابن عمها ، رضيت الجارية ، وأوصاها أن تضع الخاتم في إناء  
اللبن الذي تصطح به ، فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فعرفته فبهتت ،  
وعرفت أنه ضيفهم ، فأخبرت عفراء زوجها ، وقالت : إنه كتم نفسه حياء منك

---

(١) الأغاني ١٢٦/٢٤ .

وتذهب الرواية إلى أن الزوج كان شهماً كريماً وقد عرف قصتهما، فقربه وأكرمه وجعله يجلس إلى عفراء ويحدثها، ويخرج الزوج وقد أوصى خادماً له بالاستماع عليهما، وإعادة ما تسمعه عليه، فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، وطالت الشكوى وكلاهما يبكي أحر بكاء، وقد علم زوج عفراء بما جرى بين عروة وعفراء، وما هما فيه من حب وطهر وعفة، فأراد أن يمكث عندهم فأبي ونوى الرحيل وهو في حال من الضني والنحول والهزال، فزودوه وأكرموه وشيعوه، فلما رحل عنهم نُكس بعد صلاحه ومثاله، وأصابه غشي وخفقان وكان يغمى عليه ثم يفيق، ولقيه في الطريق ابن مكحول عراف اليمامة، فسأله عما به، وهل هو خَبَل أم جنون؟ فأنشأ عروة يقول: (١)

وما بي من خَبَلٍ ولا بي جِنَّةٌ      ولكنَّ عمي يا أُخِيَّ كذوبُ  
أقولُ لعِرافِ اليمامةِ داوني      فإنَّكَ إنْ داويتني لطيبُ  
فواكبداً أمستَ رُفاتاً كأنَّما      يُلذَّعُها بالموقداتِ طيبُ  
عشيَّةً لا عفراءُ منكَ بعيدةً      فتسلو ولا عفراءُ منكَ قريبُ  
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصِّباُ      وما أعقبَتْها في الرياحِ جنوبُ  
وبقي في هذه الحالِ يعاني لذعةِ الشوقِ وحرِّ الجوى، ويهتز مرتعداً كلما طاف خيالها في ذهنه، فيناجئها: (٢)

وإني لتعروني لذكراكِ رَعْدَةٌ      لها بين جلدي والعظامِ ديبُ

(١) ديوان عروة ص ٢٢ - ٢٥ ط انطون القوال، دار الجيل بيروت ١٩٩٥، الأغاني ١٢٩/٢٤ .

(٢) الديوان ص ٢٢ - ٢٣ والأغاني ١٣٢/٢٤ والشعر والشعراء ٣٩٥ .

فما هو إلا أن أراها فُجاءَةً فأبْهتُ حتى ما أكادُ أُجيبُ  
وأصْرَفُ عن رأبي الذي كنتُ أرْتئي وأنسى الذي حُدثتُ ثم تغيبُ  
ويُظْهِرُ قلبي عُدْرَها ويُعِينُها عليّ فما لي في الفؤادِ نصيبُ  
وحار به أهله وهم يعرضونه على العرافين والأطباء ، وعالجوه بالتعاويد  
والرقى، وقد يئس العرافون فما لهم يد في داء الهوى الدفين، وعلم عروة  
أنه هالك لا محالة : (١)

جعلت لعراف اليمامة حُكْمَهُ وعَرَأفٍ نَجْدٍ إنْ هُما شفياني  
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سَلوةٍ إلا بها سقياني  
فقالا شفاكَ اللهُ والله مالنا بما حملت منك الضلوعُ يدانِ  
فقالا نعم نشفي من الداءِ كلَّهُ وقاما مع العُوادِ يبتدرانِ  
واشدد به السقم والهزال، ويصور حاله وما صار إليه وقد لبس حلة  
جديدة : (٢)

أغرگما لا بارك اللهُ فيكما قميصُ وُردا يَمْنَةُ زَهوانِ  
متى تكشفا عني القميص تَبَيَّنَا بي الصُرُّ من عفراء يا فتیانِ  
وتعترفنا لِحْمًا قليلًا واعظماً دقاقاً وقلباً دائم الخفقانِ  
وهذا الذي فيه هو هوى عفراء الذي تمکن من قلبه وجعله دائم الوجد  
والبكاء، وإذا حدث نفسه بنسيانها وهجرها أبى قلبه وصار يشفع لها، فما  
له إلا أن يلجأ إلى الله ليعينه على تحمل ما ابتلي به : (٣)  
على كيدي من حُبِّ عفراء قَرَحَةٌ وعيناي من وَجْدٍ بها تَكْفانِ

(١) الديوان ص ٣٩ - ٤٠، الشعر والشعراء ص ٣٩٥ .

(٢) الديوان ص ٣٥ - ٣٦، تزيين الأسواق ١: ١٣٤ .

(٣) الديوان ص ٣٦ .

فَعَفْرَاءُ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِي مَوَدَّةً وَعَفْرَاءُ عَنِي الْمَعْرُضُ الْمُتَوَانِي  
 أَحَبُّ ابْنَةِ الْعُذْرِيِّ حُبًّا وَإِنْ نَأَتْ وَدَائِيَّتُ فِيهَا غَيْرَ مَا مَتَدَانِ  
 إِذَا رَامَ قَلْبِي هَجْرَهَا حَالَ دُونَهُ شَفِيعَانِ مِنْ قَلْبِي لَهَا جَدَلَانِ  
 وَمَثَلُ عَفْرَاءٍ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَشَعُورُهُ، فَلَا يَفْكَرُ إِلَّا فِيهَا وَلَا يَرَى أَحَدًا سِوَاهَا،  
 وَيَصُورُ مَا يَعْتَرِيهِ مِنْ ذَهُولٍ وَدَهْشَةٍ وَارْتِبَاكِ حِينَ يَرَاهَا فَيَنْسَى مَا أَعَدَّ مِنْ  
 كَلَامٍ يَحْدِثُهَا بِهِ : (١)

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذَكَرَاكِ رَعْدَةً لَهَا بَيْنَ جَسْمِي وَالْعِظَامِ دَيْبٌ  
 وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُبْهَتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ  
 وَأَصْرَفُ عَنْ رَأْيِي الَّذِي كُنْتُ أُرْتِيهِ وَأَنْسَى الَّذِي حَدَّثْتُ ثُمَّ تَغْيِبُ  
 وَيُظْهِرُ قَلْبِي عُذْرَهَا وَيُعِينُهَا عَلَيَّ فَمَا لِي فِي الْفَوَادِ نَصِيبُ  
 وَقَدْ عَلِمْتُ نَفْسِي مَكَانَ شَفَائِهَا قَرِيبًا وَهَلْ مَا لَا يُنَالُ قَرِيبُ  
 حَلَفْتُ بِرَبِّ السَّاجِدِينَ لِرَبِّهِمْ خَشُوعًا وَفَوْقَ السَّاجِدِينَ رَقِيبُ  
 لِئِنْ كَانَ بَرْدُ الْمَاءِ حَرًّا صَادِيًّا إِلَيَّ حَبِيبًا إِنَّهَا لِحَبِيبُ  
 وَيَتَمَنَّى عُرْوَةَ أَنْ يَعْمَ الْحُبَّ عَلَى الْجَمِيعِ وَلَا يُحْرَمَ حَبِيبٌ مِنْ حَبِيبِهِ ،  
 وَحَتَّى الْحَيَوَانَ يَرِيدُ لَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَلَا يَحْرَمُ مِنْهَا : (٢)

فِيَا لَيْتَ كُلِّ اثْنَيْنِ بَيْنَهُمَا هَوَىٌّ مِنْ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ يَلْتَقِيَانِ  
 فَيَقْضِي مُحِبُّ مِنْ حَبِيبٍ لُبَانَةً وَيُرْعَاهُمَا رَبِّي فَلَا يُرِيَانِ  
 وَأَكْثَرُ مَا يَغْضَبُ هَوْلَاءَ الْعِشَاقِ تَدْخُلُ الْوَشَاةَ وَالرَّقَبَاءَ وَالْعَاذِلِينَ، فَهَمُّ فِتْنَةٍ  
 شَرِّ قَاسِمَةٍ تَقْفُ بَيْنَ الْمُحِبِّينَ وَيَغِيظُهَا أَنْ يَنْعَمَ الْمُحِبُّونَ، فَيَأْبُونَ إِلَّا فِرَاقَهُمْ  
 وَإِثَارَةَ الْإِحْنِ وَالْمَحْنِ، وَيَتَذَمَّرُ عُرْوَةٌ مِنْ هَوْلَاءِ الْوَشَاةِ الَّذِينَ يَتَدْخَلُونَ فِيمَا لَا

(١) الديوان ص ٢٢ - ٢٣ ، الأغاني ٢٤ / ١٣٢ .

(٢) الديوان ص ٣٧ .

يعنيهم، ويصب عليهم اللعنات جزاء ما يقترفونه من تعكير صفو المحبين :

(١)

تَكْنُفْنِي الْوَاشُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ    وَلَوْ كَانَ وَاشٍ وَاحِدٌ لِكِفَانِي  
إِذَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِساً نَسْتَلْذُهُ    تَوَاشَوْا بِنَا حَتَّى أَمَلُّ مَكَانِي  
أَلَا لَعْنُ اللَّهِ الْوِشَاةَ وَقَوْلَهُمْ    فَلَانَةٌ أَضَحَتْ حُلَّةً لِفَلَانٍ  
وَلَوْ كَانَ وَاشٍ بِالْإِمَامَةِ دَارُهُ    وَدَارِي بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ أَتَانِي  
وَكُلُّ مَا يَتَمَنَاهُ عَرْوَةٌ أَنْ يَلْتَقِيَ    بِحَبِيبَتِهِ بَعِيداً خَالِياً عَنِ أَعْيُنِ الرِّقْبَاءِ ،  
يَبْثُهَا الشُّوقُ وَالْوَجْدُ وَتَبْثُهُ ، وَمَا دَامَ الْأَهْلُ وَالْوِشَاةُ يَحْوِلُونَ بَيْنَهُمَا ، وَمَادَامَ  
عَمَهُ الْقَاسِي اللَّئِيمُ قَدْ حَالَ بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ يَلْجَأُ إِلَى الْأَمْنِيَّاتِ الْبَعِيدَةِ الْغَرِيبَةِ  
أَمْنِيَّاتِ الْيَائِسِ الْمَحْرُومِ - كَمَا تَمْنَى غَيْرَةٌ مِنَ الْعَذْرِيِّينَ - بِأَنْ يَكُونَ وَعَفْرَاءُ  
جَمَلَيْنِ أَجْرَبَيْنِ يَطْرُدُهُمَا النَّاسُ فَيَكُونَا بَعِيدَيْنِ فِي الْفَلَاةِ لَا يَسْأَلُ عَنْهُمَا أَحَدٌ ،  
فَيَسْعَدَانِ بِاللِّقَاءِ الدَّائِمِ وَالصَّحْبَةِ الْعَزِيزَةِ : (٢)

يَكْلِفْنِي عَمِّي ثَمَانِينَ بَكْرَةً    وَمَا لِي يَا عَفْرَاءُ غَيْرُ ثَمَانِ  
فِيَا لَيْتَ عَمِّي يَوْمَ فَرَّقَ بَيْنَنَا    سَقَى السُّمَّ مَمْزُوجاً بِشَبِّ يَمَانِ  
بُنْيَةَ عَمِّي حَيْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا    وَضَجَّ لَوْشَكَ الْفُرْقَةَ الصُّرْدَانَ  
فِيَا لَيْتَ مَحْيَانَا جَمِيعاً وَلَيْتَنَا    إِذَا نَحْنُ مُمَّتْنَا ضَمَّنَا كَفْتَنَا  
وَيَا لَيْتَ أَنَا الدَّهْرَ فِي غَيْرِ رَيْبَةٍ    بَعِيرَانَ نَرَعَى الْقَفْرَ مَوْتَلِفَانَ  
يُطْرِدُنَا الرُّعْيَانَ عَنِ كُلِّ مَنْهَلٍ    يَقُولُونَ بَكْرًا عُرَّةً جَرِيَانَ

(١) الديوان ص ٤٢ - ٤٣ ، والزهرة ١ / ١٢٠ .

(٢) الديوان ص ٤٤ - ٤٥ . الصردان: مثنى صرد، طائر أخطب ضخم المنقار يكون في

الشجر . العرّة: الجرب . القرن: الحبل .

إذا نحنُ خِفْنَا أنْ يُفَرِّقَ بَيْنَنَا ردى الدهرِ داني بيننا قَرَنَانِ  
 وبقي عروة يعاني من الوجد والضنى، وقد أصابه السقم والهزال،  
 وكانت نهايته في الطريق حين عاد من زيارة عفراء على ما تقدم، وقيل كان  
 في بيت مفرد عن الحي ومعه أمه وهو يردد : (١)

من كان من أمهاتي باكياً أبداً فاليومَ إني أراني اليومَ مقبوضاً  
 يُسَمِّعُنِيهِ فإني غيرُ سامِعُهُ إذا علوتُ رِقَابَ القومِ معروضاً  
 ثم لفظ أنفاسه .

ولما بلغ عفراء خبر موته استأذنت زوجها في أن تندبه وتقيم مأتماً عليه،  
 فأذن لها، وكانت عند قبره تبكي وتتمرغ بترابه وهي تنشد : (٢)

ألا أيها الركبُ المُخْبُونُ ويحكم بحقِّ نعيتم عروةَ بن حزام  
 فإن كان حقاً ما تقولون فاعلموا بأن قد نعيتم بدر كلِّ ظلام  
 فلا تهنا الفتیانُ بعدك لذَّةً ولا رجعوا من غيبةٍ بسلام

ولم تزل تردد هذه الأبيات حتى قضت نحبها فدفنت بجواره.

وهكذا يسدل الستار عن قصة حب طاهر رائع ظلت تتردد في ذاكرة الزمن  
 وتستعيد ذكرها الأجيال .

(١) الأغاني ١٣٥/٢٤ .

(٢) ١٣١/٢٤، تزيين الأسواق ١/ ١٣٢، مروج الذهب ٢/ ٥٣٤ .